احاديث ابن دريد

رأى القارىء ان بديع الزمان ليس المنشيء الاول لفن المقامات ، وانما حاكى احاديث ابن دريد . فمن هو ابن دريد ، وما عسى ان تكون الاربعون حديثاً التي انشأها وفتح بها باب القصص لبديع الزمان . ولد ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصره في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ ثم صار الى عمان فأقام بها مدة ، ثم صار الى فارس فسكنها مدة ، ثم قدم بغداد فأقام بها الى ان مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الافاضة في حياة ابن دريد ، وما وقع فيها من مختلف الاحداث وما عرف به من قوة الحفظ وكثرة الاملاء ، وما اخذ عليه من افتعال العربية وتوليد الالفاظ ، وادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها ، وانما يهمنا ان نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصية القوية التي حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الافعال . وسنرى ان ابن دريد بالرغم من شغله باللغة والرواية ، وكلفه بالبحوث الجافة التي تختم على القلب ، كان رجلاً دقيق الحس ، عذب الروح . وليس بكثير عليه ان يكون فناناً بارعاً يدين له امثال بديع الزمان ممن طبعوا على جودة الفهم وحسن البيان

كان ابن دريد شاعراً . ولكن اي شاعر ! شاعر مقل تحفظ له الابيات والمقطوعات وبعض القصائد . ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر فترى معانيه قوية سحارة بلا جلبة ولا ضوضاء ، كما تفعل الجفون النواعس بألباب الشعراء

خرج مرة يريد تماز فنزل تحت نخلة فاذا باثنتين قد ان في فرعها ، فقال :

قرب [illegible] في فرع حبا [illegible] وجنح العصرُ

وقد بسطت هاتا لتلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحر

ليهنكما ان لم تراعا بفرقة وما دبّ في تشتيت شملكما الدهر

فلم ارَ مثلي قطع الشوق قلبه على انهُ يحكي قساوته الصخر

وهي ابيات تفيض بالرفق والحنان ، وتمثل ائتلاف الطير ارق تمثيل ، ولا يعرف فيها الا من الف ساعاة الطير في ضحوات الربيع ، واصائل الخريف . . . ومن شعره

عانقت منه وقد مال النعاس به والكأس تقسم سكرا بين جلاسي

ريحانة ضُمّخت بالمسك ناضرة نمتْ برد الندى في حر انفاس

وفي هذين البيتين صورة شعرية جذابة ، والبيت الثاني يبدو وكأنهُ وثبة من وثبات الحيان فاذا تجاوزنا امثال هذه الشواهد من شعر ابن دريد — وفيها وحدها الدلالة على

التفوق في الافتنان والابتداع — ثم انتقلنا الى حياة الرجل الخاصة وأيناها شهيدة بدقة فهمه ، وحلاوة نكتته ، وجرأته في الخروج على ما ألفت الجماهير . . . جاءه يوماً سائل فلم يكن عنده غير دنّ نبيذ فوهبهُ له ، فجاء غلامه وانكر عليه ذلك ، فاحتج بقوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وهي نكتة تدل على خفة الروح ، ولطف النسيم. وتذاكر جماعة يوماً المتنزهات في مجلس بعض الامراء وابن دريد حاضر فقال بعضهم انزه الاماكن غوطة دمشق ، وقال آخرون : بل نهر الابلة ، وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم: نهروان بغداد ، وقال آخرون : شعب بوان بارض فارس ، وقال آخر : نوبهار بلخ . فقال ابن دريد : « هذه متنزهات العيون ، فاين انتم من متنزهات القلوب ، » قالوا : يا ابا بكر ، قال : عيون الاخبار لابن قتيبه ، والزهرة لابن داود ، وقلق المشتاق لابن ابي طاهر »

ومن الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكتته تلك الرؤيا التي قصها علينا اذ قال « سقطت من منزلي بفارس فانكسرت ترقوتي فسهرت ليلي فلما كان آخر الليل حلتني عيناي فرأيت في نومي رجلاً طويلاً اصفر الوجه دخل عليّ واخذ بعضادتي الباب وقال : انشدني احسن ما قلت في الخمر . فقلت ما ترك ابو نواس شيئاً . فقال : أنا اشعر منه . فقلت : ومن انت ؟ قال : انا أبو ناجية من اهل الشام ، ثم انشدني :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

فقلت له : اسأت . قال : ولم ؟ قلت لانك قلت « حمراء » فقدمت الحمرة ، ثم قلت « بدت بين ثوبي نرجس وشقائق » فقدمت الصفرة ، فألا قدمتها على الاخرى كما قدمتها

[illegible]

وكان ابن دريد فوق هذه المرونة العقلية جريئاً في بثه دروسه جرأة جامحة لا يسمو اليها ولا يقوى على تكاليفها الا من وثق بأنهُ امة وحده ، وان على الناس ان يسمعوا له طائعين. فاذا سمعت انه الف اكثر من عشرين كتاباً في اللغة والادب وانه كان اعرف اهل زمانه بمآترك الاولون، فاذكر بجانب ذلك انه كان رجلاً مرحاً طروباً . وان نفسه اللعوب اوحت اليه افانين من الادب بهرت معاصريه، واعطته في النثر قوة بارعة تجعله في الصف الاول من صفوف المبدعين. ولكن ما هي آثارهُ النثرية

هي تلك الاربعون حديثاً التي حدثنا عنها صاحب زهر الآداب ، والتي هاجت بديع الزمان وحملتهُ على ان يكتب في معارضتها اربعمائة مقامة لم يبق منها الا اربعون . وقد شقيت في البحث عن تلك الاحاديث . ثم عدت أتلمس الصواب فيما افترضه استاذنا الدكتور طه حسين ، واخذت أتتبع كل ما رواه التالي عن ابن دريد ، فوجدته روى عنه اكثر

من ستين حديثاً بعضها قصير وبعضها طويل . ثم قابلت تلك الاحاديث بالحديث الشائق الذي نقله عنه حمزة الاصفهاني جامع ديوان ابي نواس فصحت لدي النتائج الآتية:

اولا — حديث ابن دريد في حج ابي نواس ممتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لان تكون اساساً لفن المقامات ، ولست اشك الآن في ان هذا الحديث جزء من الاربعين حديثاً التي ابتكرها ابن دريد

ثانياً — الاحاديث التي نقلها القالي عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تقرب في وضعها من قصته عن حج أبي نواس . وتصلح ايضاً ان تكون اساساً لفن المقامات، فلا بأس من الاطمئنان الى أنها شطر من الاربعين حديثاً التي عارضها بديع الزمان

ثالثاً — اذا غضضنا النظر عن الاحاديث القصيرة جداً التي نقلها القالي عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه ، او مما وقع اليه من كلام الاعراب ، كان ما بقي من احاديثه المتشابهة في القدر والوضع والاسلوب قريباً من الاربعين

رابعاً — يلاحظ ان اكثر ماروى القالي عن ابن دريد من الاحاديث جرى على السنة ناس مجهولين . فاشخاصه يكونون حيناً من الاعراب ، وتارة يكونون من أقيال اليمن الذين لا يعرف لهم اسم ولا يحفظ لهم تاريخ . واحياناً يكونون من النكرات التي لا يعرف لها وجود ، وهذا دليل على الوضع والاختراع

خامساً — لاحظ صاحب زهر الآداب ان الاربعين حديثاً التي ابتكرها ابن دريد « جاء اكثرها مما تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الاسماع » وانها وقعت « في معارض غير مجيبة ، والفاظ غير مشذبة » ولو اننا تتبعنا ما نقله القالي من تلك الاحاديث لوجدنا نسبة ما تضطرب صحته من بينها كبيرة الظهور . وربما ساغ لنا ان نفترض ان ابن دريد تعمد ان يدس في احاديثه بعض الالفاظ التي اتهم باختلاقها وتوليدها . فقد اتهمه ابو منصور الازهري في مقدمة كتاب التهذيب بادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها — فكان من همه اذن ان يجري ما اتهم باختلاقه على السنة الاعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق

بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ابن دريد . ولنذكر أولاً أن تلك الأحاديث في جملتها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليع . وأيّ نكتة أدق وأرشق من قصة توضع مثلاً عن حج أبي نواس ؟ ان رحيل أبي نواس الى بيت الله الحرام هو في نفسه قصيدة من قصائد المجون ، فكان من المحتم أن يعنى بعض الكتاب المازحين بعرض تلك الشخصية عرضاً تلتقي فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارىء ان ما تحت عينيه جدٌّ صُراح . وكذلك فعل ابن دريد فأنطق أبا نواس بقصة

طريقة حدثنا فيها انهُ لقي في طريقهِ نَصَباً إذ انهمل المطر في أرض بني فزارة ، فنزع الى بعض الخيام فاذا جارية مبرقعة ترنو بطرف ساحر النظر مريض الجفون ، فاستسقاها ، فمضت تتهادى في جسم خصب رشيق ، وأحضرت اليهِ الماء ، ثم كان منهُ حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد بهِ الوصول الى معاينة ما تحت تلك الثياب من أسرار الجمال . ولكن طبل الرحيل صرفهُ فانصرف ، وفي قلبهِ حسرة كامنة وكرب دخيل . فلما قضى حجه ورجع مرَّ بتلك الخيام طامعاً في الصيد ، ولكن مطامعهُ انتهت بخيبة مخجلة نكتفي في الابانة عنها بهذه الاشارة ، ونحيل القارىء على الديوان ليرى كيف برع الكاتب في السخر من أبي نواس

ثم تنظر بعد فترى ابن دريد اهتم بتصوير الشمائل العربية ، وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء في فهم الرجال ، واعجاب البنات بأعمال الآباء وما يقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصي بين الشباب والكهول . كل ذلك بطريقة قوية أخاذة تجعل لهُ مكاناً بين العالمين بالغرائز واهواء النفوس . وتلاحظ انهُ يميل الى الفكاهة حين يعرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بألفاظ وتعابير تغلب عليها النكتة ، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين يتبادلان المنى ، أو زوجين يتفارضان الهجاء

فاذا تحدَّث ابن دريد عن شجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيناهُ رجلاً جزل الرأي بعيد الغور ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب . فتراهُ تارة يقول على لسان أوس ابن حارثة « المنية ولا الدنية . والتاب قبل العقاب ، والتجلُّد لا التبلُّد ، والقبر خيرٌ من الفقر ، ومن قلَّ ذلَّ ، ومن أيسرَ قلَّ ، والدهر يومان ، فيوم لك ويوم عليك » وتراهُ تارة أخرى يُنطق رجلاً أعمى من أزد السراه يقودهُ شاب جميل ، فيقول : يابن أخي ! ان اغترارك بالشباب كالتذاذك بمبادىء الاحلام ، ثم تقشع فلا تسك منها إلا بالحسرة عليها . ثم تمرَّى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى ، واعلم ان أغنى الناس يوم الفقر من قدم ذخيرة ، وأشدهم اغتباطاً يوم الحسرة [1] من أحسن سريرة »

وبمراجعة احاديث ابن دريد تلاحظ انهُ ينتقب اعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب ان يعرف عن اسلافهم من كرم الطباع ، وشرف الاحساب. ولو بقيت لنا مقامات بديع الزمان كاملة لعرفنا الى اي حد حاكى ابن دريد في هذا الباب ، فان قصة بشر بن عوانه التي اخترعها بديع الزمان نموذج طريف في ابتداع الاقاصيص... الى هنا عرفنا الفرق بين مقامات بديع الزمان واحاديث ابن دريد ، وعرفنا من السابق ومن المسبوق . فلننظر ما ترك معاصروهم من هذا البدع الجديد

زكي مبارك

(١) هكذا وقعت هذه الكلمة « الحسرة » وربما كان صوابها « الحشرة » كما تقتضيه موازنة السياق